المهاجر في الدراسات السوسيوثقافية بين البحث عن الذات وإعادة التموقع

"دراسة في أسباب الهجرة وتحدّياتها"

The immigrant in sociocultural studies between self-search and relocation - a study in the causes and objectives of migration

أحمد عبد العالي*

جامعة مولود معمري، تيزي وزو، (الجزائر)

ahmed.abdelali@ummto.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/20 تاريخ القبول 2022/09/27 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص:

لاشكّ أنّ تيمة الهجرة قد أخذت نصيباً وافراً من الأعمال الأدبية سيما بعد الحركة الاستعمارية التي طالت دول العالم الثالث، حيث باتت الهجرة الفضاء الأنسب لنزوح الكثير من الأفراد نحو عوالم جديدة كانت قد رسمتها لهم مخيّلتهم، هجرة لم تكن لولا الدوافع المختلفة التي دعت إليها، وبالتالي يجد الإنسان نفسه في مواجهة متعدّدة الأبعاد غالباً ما تنتهي بخيبات أمل، ولعلّ من نتائج هذه المواجهة تلك الهوّة التي يجدها المهاجر لحظة تراكم ثقافته الأصلية والثقافة التي اكتسبها في الضفة الأخرى، لتطفوَ إلى الواجهة أزمة الهوية وما تشكّله من تداعيات وانعكاسات اجتماعية، والتحدّي الذي يلاحق المهاجر في محاولة البحث عن هويّة مستقلّة بين الثبات والتغيّر.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، الهوية، الحرية، الأنا والآخر، الثقافة، الاغتراب، الانتماء.

* المؤلف المراسل

Abstract:

there is no doubt that the theme of migration has taken a large share of literary works, especially after the colonial movement that affected the third world countries. Where migration has become the most suitable space for the exodus of many individuals towards new worlds that their imaginations have drawn for them, an emigration that would not have been possible without the various motives that called for it. The immigrant finds it at the moment of the accumulation of his original culture and the culture he acquired on the other side, so that the identity crisis and its social repercussions and repercussions rise to the fore. The one who pursues the immigrant in an attempt to search for an independent identity between stability and change.

key words: Migration, identity, freedom, ego and the other, culture, alienation, belonging.

مقدّمة:

اتّضح جلياً منذ بواكير الوجود الإنساني أنّ الانتقال صفة ملازمة للبشر وغريزة متأصّلة فيهم، فقد ثبت أنّها سنّة حياتية رافقت كل العصور البشرية وظاهرة جذورها ضاربة في أعماق التاريخ، وبحكم أنّ الفرد محكوم عليه بالعيش مع الآخرين فهو يبحث دائماً عن وسط يضمن له كرامته ويمارس فيه حقوقه دون متاعب، حيث تتملّكه دائما رغبة في الارتحال والتطوّر باحثاً عن حياة أفضل ليضمن بقاءه وشعوره بالأمان، ومنذ أن وطأت قدما الإنسان هذه الأرض لم يعرف الاستقرار، فكلّما تنعّم بالحياة على أرضٍ سرعان ما تاقَ ورغِبَ في العثور على أفضلٍ منها، لاشكّ أنّها غريزة طبيعية في أغلب الكائنات الحيّة .

لقد ارتبط الإنسان منذ وجوده بعنصرين هامّين هما المكان والزمان، فعلاقته بالمكان من حيث وجود ذاته وتقاطعها مع وجوده الاجتماعي، أمّا الزمان فهو الأفق الذي نطلّ منه على مسألة الوجود، وبالتالي فالمكان هو الانتماء أو ما يعبّر عنه بالحيّز الجغرافي الذي يحمل أبعاداً اجتماعية وثقافية ودينية وغيرها..، وبما أنّ صفة المجتمعات هي التغيّر فقد أضحت الروابط الاجتماعية للفرد ديناميّة تتماشى وظروف عصره، ففي أحايين كثيرة يجد

الأفراد فرصاً للعيش الرّغد في مكان آخر من العالم، وبسبب تلك الروابط الهشّة وظروف العيش الصعبة التي تهدّد وجودهم، باتت هجرة الأوطان ضرورة يتطلّعون بها نحو الأفضل.

إنّ الانتشار الكبير لظاهرة الهجرة في العالم لاسيما في القرنين الماضيين راجع للتفاوت الاقتصادي والتعليمي والثقافي والاجتماعي بين الدّول والجماعات، ومردّ ذلك هي مختلف السياسات الاستعمارية التي ساهمت في تمزيق الدّعامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للدّول المستعمَرة، ولاشكّ أنّ المتابع للخطابات الرّسمية والإعلامية بشكل خاص في السنوات الأخيرة يلاحظ تلك النبرة الحادّة الدّاعية لتنظيم الهجرة والحدّ من الهجرات الجماعية غير الشرعية وضرورة الاهتمام بكرامة وحقوق الأفراد في بلدانهم الأصلية، والعمل على حلحلة مشاكلهم والحرص على تبنّي طاقاتهم وكفاءاتهم، كلّها جهود يمكن أن تلخّص لنا آثار الهجرة على البلدان الأصلية والبلدان المستقبِلة للأفراد، إضافة إلى قيمة الهجرة باعتبارها آلية من آليات التلاقح الثقافي والاجتماعي بين الشعوب والحضارات .

تعدّ الهجرة سلوكاً إنسانياً لو أبعاد وغايات غير التي كانت في السابق، بعد أن كان الارتحال والانتقال من حيّز جغرافيّ إلى آخر طلباً للأكل والشرب غاية الإنسان في عصور خلت، بات هذا الانتقال انعكاساً لهروب الإنسان من الممارسات الاجتماعية التي لا تتلاءم وشخصيّته، إضافة إلى سخطه وثورته على القوانين غير العادلة التي تخلق فروقات فردية في المجتمع الواحد، وتحمّله لمشقّات الحياة وظروف العيش التي لم تعد في مستوى تطلّعاته، وبحجم هذه الممارسات فقد أصبحت الهجرة حدثاً فارقاً في المجتمعات معبّرة عن رغبة الأفراد في تغيير شروط وجودهم الاجتماعي وجزء هام من بناء الهويّة الجماعية التي لا تتحقّق ولا تكتمل إلاّ من خلال رسم الحدود بين الذات والغير، من هذا المنطلق جاء موضوع بحثنا ليشكّل محاولة جديدة للتقصّي في ظاهرة الهجرة من وجهة نظر سوسيوثقافية وتسليط الضوء على دور الهجرة في ازدهار دول الاستقبال، فوضعنا جملة من التساؤلات جاءت على النحو الآتي:

-ما المقصود بالهجرة لغة واصطلاحاً ؟ وما التفسير الاجتماعي لها ؟

-أيّ أسباب دفعت هؤلاء الأفراد والجماعات إلى بلورة قرار الهجرة ؟ وكيف ساهمت سياسة الهجرة في تحقيق التلاحق الثقافي بين الشعوب والدّول ؟

-ما الآليات التي تجعل المهاجر يندمج مع مجتمع الاستقبال دون أن يفقد هويّته ؟

- في ظلّ التحدّيات التي تواجه بلدان الاستقبال، هل تنظيم الهجرة وإدارتها يخضعان للتغيّرات الاجتماعية ؟.

المبحث الأول: الهجرة مفهومها وأسبابها:

1. تعريف الهجرة لغة واصطلاحاً:

الهجرة **لغة:** للهجرة بكسر الهاء ثلاثة معانٍ هي:

أ – الصرم والقطع: مِن هجَره يهجُره، والاسم منه الهِجرة بالكسر. قال مرتضى الزبيدي: (هجره يهجره هَجراً وهِجراناً بالكسر: صرمه وقطعه، وفي الحديث "لا هجرة بعد ثلاث"[1]، يريد به الهجر ضد الوصل)[2] .

ب – الخروج من أرض إلى أخرى: مِن هاجَرَ يُهاجِرُ، والاسم منه الهِجرة والهُجرة بالكسر والضمّ وليس مِن (هجر). قال أبو العباس الفيومي: "والهِجرة بالكسر مفارقة بلد إلى غيره ... وهي اسمٌ مِن هَاجَرَ"[3].

وقال ابن منظور: "والهِجرة والهُجرة الخروج من أرض إلى أرض كلّ مخل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هاجر قومه، وسمّي المهاجرون مهاجرين لأنّهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله"[4] .

– وخصّ "الطاهر بن عاشور" المهاجَرة بالخروج عن الوطن تحت الإكراه،" وإنّما اشتق للخروج عن الوطن اسم المهاجرة لأنّها في الغالب لا تكون إلاّ عن كراهية بين الراحل والمقيمين، فكلّ طرف يطلب ترك الآخر. ثمّ شاع إطلاقها على مفارقة الوطن بدون هذا القيد"[5] مستشهداً بقول عبدة بن الطبيب:

إنّ التي ضربت بيتاً مُهاجَرَة • بكوفَة الجند غالت وُدَّها غُول[6]

ج – الترك والصدّ والإعراض: مِن هجر وبابه قتل ، ومنه قوله تعالى: "واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً"[7]، وقوله: "والتي تخافون نشوزهنّ فعِظوهنَ واهجروهنّ"[8]. قال ابن منظور: (هجرت الشيء هجراً إذا تركته وأغفلته) [9]. وأورد حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: (ولا يسمعون القرآن إلاّ هجراً) [10]. وقال: (يريد الترك له والإعراض عنه)، ومنه قوله تعالى: (وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً) [11]، أي متروكاً، وفي المعجم الوسيط: (هاجر: ترك وطنه، وهاجر من مكان كذا، وعنه: تركه وخرج منه إلى غيره)[12].

أمّا في **الاصطلاح**، فقد جاء في معجم العلوم الاجتماعية أنّ مصطلح الهجرة يستعمل للدلالة على التحركات الجغرافية لأفراد أو جماعات، أمّا التعريف الديموغرافي فهو وارد في المعجم الديموغرافي الصادر عن قسم الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة والذي يعتبر: "أنّ الهجرة شكل من أشكال انتقال السكان من أرض تدعى المكان الأصلي أو مكان المغادرة إلى أخرى تدعى مكان الوصول أو المكان المقصود ويتبع في ذلك تبدل في محل الإقامة"[13]، كما تعتبر الهجرة" الاغتراب أو الخروج من أرض إلى أخرى أو الانتقال من أرض إلى أخرى سعياً وراء الرزق، وتعني حركة الانتقال فردياً كان أم جماعياً من موقع إلى آخر بحثا عن وضع أفضل اجتماعيا كان أم اقتصاديا أم سياسيا"[14].

2. التفسير الاجتماعي للهجرة :

ممّا لاشكّ فيه أنّ الإنسان أكثر الكائنات الحيّة ديناميّة، ومن الأشياء التي تترجم هذه الديناميّة هو النزوح من مكان إلى آخر أو ما يصطلح عليه في مختلف العلوم بظاهرة الهجرة، ولما كانت الهجرة تعني الانتقال الفيزيقي للأفراد والجماعات من مكان إقامة دائمة إلى منطقة أخرى لمدة قد تطول أو تقصر، أضحى المفهوم حاملاً لرؤية اجتماعية مكمّلة

للبعد الجغرافي بالنظر إلى انفصال المهاجر عن جميع الروابط الاجتماعية من ناحية، وتوزيع العلاقات الاجتماعية للأفراد من ناحية أخرى.

لقد اهتمّت سوسيولوجيا الهجرة _ منذ ظهورها مطلع القرن التاسع عشر مع الاتجاه الاجتماعي لمدرسة شيكاغو الأمريكية بزعامة (الأمريكي وليام توماس والبولندي فلوريان زنانيكي)، بالبحث في تيمة الهجرة وأنواعها، وتشريح أسبابها ودوافعها، وآثارها على المجتمع القادم منه والمستقبل له، ولعلّ ما شغل أصحاب هذه المدرسة تلك الفترة هو محاولة دراسة العلاقات التي تربط البشر بعضهم البعض في عالم متغيّر وخاضع لسباق التصنيع والتحضّر، ومركّزين على فهم سلوك الأفراد داخل الجماعة محاولين استقصاء الطبقات الاجتماعية ونقد النظريات القائمة حول مفهوم الاندماج الثقافي والاجتماعي وغيرها من الإشكاليات.

تستعمل الهجرة في العلوم الاجتماعية للدلالة على تحركات الأفراد والجماعات جغرافياً، فيغيّرون من خلالها مكان إقامتهم تغييراً دائماً أو مؤقتاً، فهي "فعل اجتماعي تفرضه الظروف التي تنتجها البناءات الاجتماعية، سواء للمجتمعات المهاجَر منها أو المهاجِر إليها"[15]، ولقد استند عالم الاجتماع الأمريكي "لايفلي" في تعريفه للهجرة إلى متغير الزمان والمكان، ومن ثم فهو يرى أن الحركات البشرية تصنف إلى ثلاثة أنواع : (التحرّك من محل إقامة ثابت– الارتحال أو التنقل الدائم– نقل محل الإقامة أو تغييره بصفة دائمة)، واعتباراً لذلك يصبح مفهوم الهجرة مفهوماً واسعاً ومتعلقاً بتغيير مكان الإقامة، وبالمدة الزمنية التي تستغرقها الهجرة، ومِن ثمَّ فإنّ هذا التعريف يتصف بالعمومية[16].

يعتبر التفسير الاجتماعي للهجرة تفسيراً غير حتمي، فهو لا يركز على عامل وحيد في تفسير الهجرة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهو لا يركز أيضا على عوامل الطرد وحدها بل ينظر إلى الهجرة والمهاجرين نظرة متكاملة، فيرى المهاجرون على أنّهم حلقة

وصل تربط بين مجتمع الإرسال ومجتمع الاستقبال وأنّ الطرق السائدة في كلا المجتمعين تلقي بأثرها على الهجرة والمهاجرين وتحدد قرار الهجرة واتجاهها ومدّتها وعوائها...الخ، هذا وبالضبط ما ركّزت عليه سوسيولوجيا الهجرات.

إذا كانت الهجرة ظاهرة اجتماعية ترافق سيرورة تطور المجتمعات الإنسانية، معبّرة عن رغبة الأفراد في تغيير شروط وجودهم الاجتماعي، فإن الانعكاسات التي تخلّفها على مختلف المهتمّين بحقول العلوم الاجتماعية والانسانية اتّخاذها موضوعا للبحث العلمي قصد فهم طبيعتها، ومدى تأثيرها على الأفراد المهاجرين، وكذلك المجتمعات المستقبلة.

3. أسباب الهجرة :

إنّ الهجرة من مكان إلى آخر ومن دولة إلى أخرى حق إنساني لا يمكن تجاهله، ومن الملاحظ مع مرور الزمن أنّها تأثّرت بفعل عديد الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية وغيرها من المجالات التي تسبّبت في هجرة عديد الأفراد من بلدانهم الأصلية، ولعلّ الظروف السياسية شكّلت دافعاً قوياً لنزوح الأفراد والجماعات من هذه البلدان إلى بلدان أخرى يشعرون فيها بالأمان، ومن بين الدوافع السياسية التي تتسبّب في الهجرة ضغط القوة والتهديد والسيطرة الناجم عن التدخّلات العسكرية وبخاصة من الدول العظمى، الذي يؤدي بدوره إلى نزوح جماعي في الغالب، إضافة إلى هذا فإنّ الضغط السياسي المحلّي المتمثّل في انعدام الديمقراطية وفرض النُظم الديكتاتورية في دول العالم الثالث يؤدّي إلى احتقان داخلي للأفراد، ما يجعلهم يساقون إلى السجون والمعتقلات دونما سبب، ولعلّ الصراعات الداخلية والانقلابات العسكرية وضياع حقوق الإنسان بمثابة شرارة لفعل الهجرة، كما "تعتبر بعض الظروف الطارئة كإيقاع عقوبات دولية على مجتمع ما من العوامل المسببة لها"[17].

إنّ البحث عن الدوافع الاقتصادية لظاهرة الهجرة يحيلنا إلى تحليل المجتمعات الأصلية وما يعانيه الفرد من مشاكل لا حصر لها، كالبطالة والفقر وتهاوي الاقتصاد المحلّي للدّول

وغيرها، حيث يعتبر أهمّ الباحثين والمفكّرين أنّ الدوافع الاقتصادية هي دوافع دحر الأفراد لهجرة أوطانهم، وفي الوقت ذاته هي دوافع جذب بعض الدول للمهاجرين من أوطانهم الأصلية، فهم يرون أنّ الدول المستقبلة ستحقّق لهم الظفر بوظيفة محترمة ما يعبّد لهم طريق الرّخاء وزيادة الدخل الفردي، علاوة على ذلك وفي كثير من الأوقات تكون الحوافز المادية سبباً رئيسياً للهجرة، "فالمهاجر ليس هو المتشرد أو التائه، بل هو إنسان اقتصادي بالدرجة الأولى، يقوم بأفعال عقلانية وغائية"[18]، وبالتالي فإنّ التباين الحاصل في المعيشة بين الدول الأصلية وبين الدول المستقبلة كثيراً ما يكون عاملاً مشجّعاً لانتقال الأفراد للطرف الأفضل، كما أنّ رغبتهم في البحث عن فرص جديدة لتحسين ظروف عيشهم كانت هي الدافع المسيطر في الهجرة الحديثة، فلا نكاد نسمع عن أشخاص راضين بدخلهم المادي أو بمناصب عملهم في بلدانهم الأصلية، حيث عرّف المؤتمر الدولي المنعقد في روما سنة 1924م المهاجر بأنّه: "كلّ أجنبي يصل إلى بلد طلباً للعمل.."[19].

يؤدي الدافع الاقتصادي دوراً هاماً ورئيسياً في هجرة السكّان، ولا يختلف اثنان في القول بأنّ الفقر المدقع هو الهاجس الكبير الذي يجبر الإنسان أن يرتحل ويهاجر طلباً للرّزق، لا سيما إذا كان هذا الإنسان يعيش في بيئة تنتشر فيها الأوبئة والمجاعة جنباً إلى جنب، وبالتالي فإنّ "انتشار البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا يساعد على توفير المتطلبات الضرورية للإنسان وأسرته، ولهذا يندفع إلى الخارج تفتيشاً عن مورد رزق يحقّق غايته"[20]، ونتيجة لذلك تصبح فكرة الهجرة هي السبيل الوحيد لانتصار الذات والتخلّص من واقعٍ ميؤوس منه، "فغالب الهجرات تحدث نتيجة لعدم التوازن بين الموارد الاقتصادية في منطقة الأصل من جهة، ومتطلبات السكان من جهة أخرى"[21] .

مثلما تحدّثنا عن الدوافع التي تتسبّب في هجرة الأفراد والجماعات من بلدانهم الأصليّة، لابدّ أنّ نعرّج على العوامل التي تستهدف أو تستقطب المهاجرين في دول الاستقبال، وقد تكون هذه العوامل حقيقية على أرض الواقع أو مجرّد تخيّلات وأوهام،

وبما أنّ عوامل الجذب مرتبطة بدول الاستقبال فكثيراً ما يبحث الأفراد عن وسيلة يستطيعون من خلالها أخذ تفاصيل أو معلومات دقيقة عن البلدان التي يرغبون في الهجرة إليها، الأمر الذي شكّل عائقاً أمامهم في عصور سابقة، أمّا مع ظهور الإنترنت ومختلف التكنولوجيات الحديثة أضحى من السهل على هؤلاء الأفراد التعرّف على أدّق التفاصيل لدول الاستقبال ما يقلّل من عنصر المفاجأة والخيبة.

يعتبر التقدم الحضاري والثقافي للبلدان المستقبلة للمهاجرين من بين العوامل الأساسية لتدفّق الأفراد إليها، حيث يتطلّع هؤلاء لتحسين مستواهم التعليمي والظفر بفرص التكوين في مختلف التخصّصات وفي جميع المستويات، خاصة إذا تعلّق الأمر بتلك الفئة التي تسعى إلى تحسين إمكانياتها وتفجير طاقاتها في وسط يدعّم ويحفّز الكفاءات، وإذا انتقلنا إلى الجانب الاقتصادي فإنّ فرص العمل من العوامل الرئيسية في جذب واستقطاب المهاجرين، باعتبار أنّ الوضع الاقتصادي يكون قوياً ومزدهراً في البلدان التي تتمتّع بمنظومة صناعية وتجارية هائلة وقطاع خدماتي موازي لها، ما يستدعي خلق بيئة عمل حركية وزيادة الطلب على اليد العاملة باستمرار.

إنّ حديثنا عن العوامل الثقافية والاقتصادية التي تجذب المهاجرين قد لا تؤثّر في الأفراد ما لم تُطعّم بالقَبول والرغبة النفسيّة، ولا تتوقّف هنا فقط بل تتعدّاها إلى مستويات أخرى كمستوى الطموح والتطلّع، إضافة إلى مبدأ التعايش وحريّة الأديان والمعتقدات الذي تتيحه الدول المستقبلة وبخاصة بعض الدول الأوروبية في التعاطي مع عادات وتقاليد المجتمعات الإفريقية، ولا ننسى العامل الجغرافي المتمثّل في المناخ المميّز والطبيعة الفاتنة، والذي يشكّل عامل جذب واستقطاب للبشر من شتى أنحاء العالم، ناهيك عن التطوّر التكنولوجي والعلمي وحداثة الوسائل والأجهزة.

4. سياسة الهجرة وأثرها في التبادلات الثقافية :

تعتبر الهجرة ميداناً خصباً لدراسة حجم التبادلات الثقافية للبلدان وعاملاً من عوامل تشكيل مجتمعات جديدة، لما تحدثه من عوامل ومؤشرات تؤدّي إلى معرفة خصائص كلّ واحدة منها، ذلك أنّ المهاجر وافد من مجتمع له لغته وعاداته وتقاليده وأعرافه إلى مجتمع آخر له قيمه وثقافته ومعتقداته الاجتماعية، فبالرّغم من التباين الإثني والثقافي مع المجتمع الجديد، إلاّ أنّه قد يحدث للمهاجر تغيّر اجتماعي يفرض عليه التكيّف مع هذا المجتمع، الأمر الذي لا يمنع من أن يكون لهذا المهاجر صلات ببلده الأمّ عبر مختلف وسائل التواصل، كون أنّ هذا التكيف أو الاندماج مع المجتمع الجديد لم يصل مرحلة الاكتمال بعد، ولاشكّ أنّ عامل الزمن يعتبر من الآليات المساعدة لحدوث التغير الثقافي بالنسبة للمهاجر، فكلّما طالت فترة تواجده في البلد المستقبل أضحى يمتلك ثقافات وعادات وتقاليد تتيح له الاندماج الكلّي في المجتمع الجديد، ولعلّ الزمن كفيل أن يساعد المهاجر في حدوث التغير الاجتماعي وينصهر في فضاء غريب عنه، هذا الانصهار يتسبب في أحايين كثيرة في ترك المهاجر لعادات ترتبط بثقافته الأصلية حتى يتسنّى له التفاعل مع المجتمع الجديد.

إنّ فكرة التبادل الثقافي أو هجرة العنصر الثقافي من منطقة إلى أخرى تعتبر أصل الثقافة الجديدة، والتي تظهر آلياتها في المجتمع في جوانب عديدة ومختلفة، منها هجرة الأفراد من أوطانهم الأصلية إلى أوطان أخرى مستقبلة، حيث يكون المهاجر حاملاً لقيم وعادات وتقاليد ومعتقدات وأفكار بلده الأصلي، وسرعان ما تتغيّر عليه هذه المحمولات الثقافية بنزوله البلد المستقبل، هنا يصبح لزاماً عليه العمل على التكيّف مع ثقافة جديدة لم يعهدها حتى لا تتكوّن عنده فجوة وعزلة ثقافية، ومن بين آليات التلاقح الثقافي هو مشاركة المهاجر في المناسبات الاجتماعية للبلد المستقبل، وأن يقيم علاقات اجتماعية جديدة ومتينة بينه وبين من حوله من جيران أو أصدقاء العمل أو الدراسة، ولا يتأتّى هذا إلاّ باللغة باعتبارها الوسيلة المستخدمة لتترجم الثقافات المختلفة، "فهناك ارتباط وثيق بين

التغير الاجتماعي والتغير الثقافي، ذلك لأنّ عناصر الثقافة من تراث وعادات وتقاليد وأخلاقيات موجودة في المجتمع"[22]، حيث أنّ الهجرة عملت على وجود تباين في لغة المهاجر ولغة أهل البلد المستضيف الرسمية، فبات المهاجر في كثير من الأحيان مجبراً على تعلّم لغة غير لغته الأمّ حتّى تتهيّأ له الظروف الملائمة للاندماج.

إنّ اللّغة عنصر هام من عناصر إثبات الوجود الإنساني، وهي أداة لتشكّل الهويّة وإحداث التفاعل والتبادل الثقافي بين الأفراد والجماعات، وبالتالي فإنّ الهويّة حاملة "مجموعة من العناصر الثقافية والاجتماعية باعتبارها المتغيرات الأساسية التي يُعتقد أنها أحدثت التغيرات الاجتماعية والثقافية في وسط المهاجرين"[23]، وهذه العناصر هي اللغة باعتبارها وسيلة تعبر عن الثقافات المختلفة، إضافة إلى العادات والتقاليد التي تختص بها كل مجموعة أو فئة بشرية والتي تميزها عن المجموعات الأخرى، والعلاقات الاجتماعية وغيرها من العناصر التي تحفظ الثوابت وترسم معالم الانتماء.

المبحث الثاني: الاندماج السوسيوثقافي للمهاجرين والهوية:

1. الاندماج السوسيوثقافي للمهاجرين والبحث عن الهوية:

لا يستطيع معظم الأشخاص إدراك مدى الصبر والتحمّل الذي قد يتطلّبه العيش والاستقرار في بيئة مختلفة وثقافة جديدة لم يألفوها، الأمر الذي ينتج عنه توتّر وضغوطات تعتبر إفرازات طبيعية كلّما انتقل الإنسان من موطنه إلى آخر لم يعتد عليه، فقد يشعر أيّ واحدٍ منّا في بعض الأحيان بأنّ أمور الحياة باتت صعبة ومعقّدة، كذلك قد نعاني من الاكتئاب وسيطرة مشاعر اليأس والإحباط فلا عجب في ذلك، وقد يجد الكثير منّا نفسه أمام مشاعر قويّة وردود أفعال غريبة وهمجية..، وبالرّغم من كلّ هذه المواقف على اختلافها فهي تعدّ ردّة فعلٍ طبيعية للانتقال والتغيير من حالة إلى حالة أخرى أو من حيّز جغرافي إلى آخر، وحتى لا نقع في السلبية دائماً فإنّ هذه الحالات والأوقات الصعبة عادةً

ما تخلّف بعدها شحنات إيجابية تمثّل انطلاقة جديدة وطموحات لاكتشاف سُبل التكيّف مع ظروف الحياة في بلد الاستقبال.

قد تصبح بلدان الاستقبال بالنسبة للمهاجر أوطاناً ثانية، ما يعني أنّ بمقدوره مستقبلاً التنقّل بين وطنين من خلال بناء جسر ثقافي يربطهما، هذه القدرة على امتلاك بناء الجسور الثقافية يعطي للمهاجر مكانة رائدة في تعزيز القيم الاجتماعية وتوسيع أفق المبادلات الثقافية وتفنيد الآراء والأحكام السلبية المسبقة التي تتحدّث عن وجود فجوات ثقافية بين الأنا المهاجرة والآخر المستقبل، "فالآخر هو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي، وتتضح إشكالية الأنا (العربية، الإسلامية) والآخر الغربي بسبب سوء التفاهم والمواجهة السياسية والعسكرية، أمّا علاقة الذات به من الناحية الثقافية والاقتصادية والتقنية فقد بدت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها"[24]، وإذا اعتبرنا أنّ طرائق العيش هي إحدى سمات التباين الثقافي بين المهاجر والأشخاص الآخرين في بلد الاستقبال، فإنّ هذا التباين لن يكون عائقاً في عملية التواصل بين الطرفين غالباً، بل ويشكّل فضاءً ثالثاً وأفقاً جديداً للانفتاح على ثقافة الآخر، "حيث تعيش الذات تجربة اكتشاف الآخر، وعبر هذه التجربة المعاشة بوعي مزدوج، تتمّ إعادة بناء الذات من شرفة الانفتاح، فتتحوّل الغرابة إلى ألفة"[25].

لا يمكن للهجرة أن تشكّل الإطار الأنسب لاجتثاث الأفراد والجماعات من محيطهم الأصلي، في وقت أضحت فيه بلدان الاستقبال عاجزة على استيعاب خصوصياتهم وإدماجهم في المحيط السوسيوثقافي المستجد، سواء أكانت الهجرة إرادية أو قسريّة، فقد "ظهرت التعددية الثقافية رداً على سرديات الاندماج، ربّما كان الحافز الأساسي لها يتمثّل في الاعتراف بأنّ الكثير من المهاجرين لم يكونوا متحمّسين للاندماج، إنّهم يفضّلون أن يتجمّع بعضهم مع بعض في تكتّلات تؤدّي إلى حماية ثقافتهم الأصلية"[26]، من هنا يتحدّد نسق الهويّة الذي يكشف داخل العديد من الأفراد عن حالة التزعزع والانقسام

النفسي للذات، ففي كثير من الأوقات ما تؤدّي المزاوجة بين الثقافة الأصلية وثقافة مجتمع الاستقبال إلى فقدان الهويّة، "فلا يدرك المرء أهميّة هويّته إلاّ في لحظة مأزومة، يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتد إلى مكوّناته الأصلية التي تمنحه الإحساس بوجوده، أي بتميّزه واختلافه عن الآخر، فيحسّ بضرورة الحفاظ على هذه المكوّنات مهما كانت التحدّيات، إذ كلّما احتدّت المواجهة مع الغير زاد المرء تمسّكاً بمكوّنات هويّته وخصوصيته، حتى تكاد تصبح (أناه) وهذه المكوّنات شيئاً واحداً"[27]، فتكتشف الأنا ذاتها وأنّها نسق مختلف عن نسق الآخر، لتكتمل الصورة مختصرة في ثنائية متضادة تعبّر عن إشكالية عميقة بين الأنا والآخر.

يكتسي خطاب الهجرة من حيث الحمولة الثقافية أربعة أنواع، النوع الأوّل يتمثّل في المهاجرين التقليديين، الذين يتقبّلون ويستلهمون الاندماج مع ثقافة مجتمع الاستقبال، والنوع الثاني هم أولئك الحاملين لنوايا الانصهار والتلاقح الثقافي، فيساهمون بما لديهم ويأخذون ممّا يجدونه في بلد الاستقبال، أمّا النوع الثالث فهم الفئة الانعزالية ثقافياً والمصمّمة على عزل نفسها عن مجتمع الاستقبال، في حين أنّ النوع الرابع يتمثّل في المستوطنين الذين أصرّوا على نشر وتثبيت ثقافتهم وسط السكان الأصليين.

يساهم اندماج المهاجرين في المجتمعات المستقبلة في تحقيق الاستقرار الاجتماعي وتماسك لبنية التحتية لهذه الدّول، إضافة إلى الاحترام المتبادل والقبول الثقافي، وتتطلّب عملية الاندماج حصول المهاجرين الشرعيين على الحقوق التي يكفلها قانون دول الاستقبال لمواطنيها الأصليّين، والتي تتمثّل عادة في الخدمات الاجتماعية الأساسية كالتعليم والصحّة والعمل، والابتعاد عن نظرة الاحتقار والتسلّط التي مارستها بعض الدوّل الاستعمارية تجاه المجتمعات الضعيفة سابقاً، حيث كانت "العديد من المركزيات في مختلف دول العالم المتقدّم ترى في دول العالم الثالث هامشاً يجب أن يكون تابعاً لكلّ ما هو غربي"[28]، أمّا في الطرف الآخر فيحتاج المواطنون العائدون إلى بلدانهم إلى إعادة

إدماج، واتّخاذ تدابير خاصة لضمان نجاح إعادة إدماجهم في مجتمعاتهم الأصليّة دون مضايقات.

2. تحدّيات تنظيم وإدارة الهجرة:

بما أنّ "الهجرة ظاهرة جغرافية تعبر عن ديناميكية سكانية، على شكل مجموعات بشرية من مكان إلى آخر، وذلك بتغير مكان الاستقرار الاعتيادي للفرد"[29]، فإنّه من الصّعب التحكّم والسيطرة على هذه المجموعات في ظلّ الأعداد المتزايدة كلّ سنة، حيث تلجأ الدّول إلى تنظيم عملية الهجرة رغبةً في استقطاب التدفقات الواردة وإدارتها هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهي تهدف إلى تشجيع وتسهيل الهجرة الخارجة وضبطها بما يتماشى وقوانينها، الأمر الذي يشكّل تحدّياً كبيراً لهذه الدّول لما يتطلّبه من سياسات قويّة تستجيب للتغيرات الحاصلة على مستوى الهجرة الدولية، "فإدارة الهجرة تقتصر على الإحاطة بعدد من المهام العليا في حكومات الدول، والتي ترتبط بتسيير الدخول والتواجد القانوني للأجانب ضمن إقليم الدولة"[30]، أمّا عملية تنظيمها "فهي عملية أوسع تتضمن بالإضافة إلى إدارة الهجرة السماح للأجانب الذين في وضعية غير قانونية الحصول على الصفة القانونية داخل الدولة"[31] .

نظرًا للطفرة التكنولوجية الهائلة في وسائل الاتّصال والتنقّل، والتي أفرزت لنا أشكالاً جديدة ومختلفة من السلوكات الإنسانية وسلاسة كبيرة في الحركة، فقد أعادت هذه الطفرة ترتيب حسابات الهجرة وغيّرت قواعدها وجعلتها أكثر تعقيداً وأنتجت لنا ما يسمّى بالهجرة غير الشرعية، التي تُعرف بأنّها نمط متعلق بالانتقال من بلد لآخر من خلال كسر القيود والقوانين المحدّدة لهذه الحركة، هذا النوع من الهجرات المعقّدة ساهم بشكل كبير في إنتاج نموذج معرفي لم يكن معروفاً في السابق أُطلِق عليه "الهجرة الافتراضية"، وهي نوع من الانتماء الفكري لشريحة معيّنة أغلبها شبابية تمثّل لهم دول

العالم المتقدّم حلماً جمعياً، حيث أضحت المجتمعات الافتراضية عبر مختلف المواقع الالكترونية أو تطبيقات الويب صورة مصاحبة للهجرة الافتراضية.

تكمن خطورة تنظيم وإدارة الهجرة بعد أن تحوّر هذا المفهوم بفعل التطوّر التكنولوجي، فباتت تلك القوانين والقيود المنظّمة للهجرة التقليدية لا تتلائم ومفهوم الهجرة الجديد، وبالتالي فإنّ إعادة ضبط تلك القوانين وتحيينها ينطلق من تحليل معمّق لمختلف الثقافات والبحث في التغيّر الحاصل للمجتمعات، حيث "تؤشر الهجرة دوماً على نوع من الحراك الاجتماعي داخل المجال، والذي يفترض انتقالاً اجتماعياً من فضاءٍ إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى"[32].

تهتمّ الإدارة الشاملة للهجرة بضمان الحماية الفعّالة لحقوق المهاجرين، الأمر الذي دعت إليه المنظّمات العالمية في كلّ مناسبةٍ وتغافلت عنه أغلبية الدّول، وإذا عُدنا إلى أرض الواقع وجدنا أنّ نسبة كبيرة من المهاجرين قد حُرمت من حقوقها، بل وتعرّضت لممارسات تعسّفيّة وسياسات تمييزية وعنصرية مثل سوء المعاملة والاستغلال المفرط والاضطهاد.. الخ، ولاشكّ أنّ صون حقوق هؤلاء المهاجرين يعتمد على مدى التطبيق الصّارم للقوانين المكرّسة في ميثاق هيئة الأمم المتّحدة ومنظّمة حقوق الإنسان، والسهر على تطبيق الاتّفاقيات واللوائح المتعامل بها دولياً، ومنه نستنتج أنّ إدارة الهجرة تحوي كافة الإجراءات القانونية المتعلقة بمنح التأشيرات انتهاءً بإجراءات الحصول على الجنسية في بعض الحالات، أمّا تنظيمها فيتركّز على تسوية وضعيّة الوافدين إلى البلاد وحمايتهم، وضبط مدّة إقامتهم، والعمل على احترام آجالها، والإشراف على عودتهم لبلدانهم الأصلية.

خاتمة:

في الأخير ومن خلال بحثنا في موضوعة الهجرة من زاوية سوسيوثقافية ودراسة عوامل انتشار هذه الظاهرة وإلقاء الضوء على الديناميّات الهجروية كمرجعية في الفهم والتفسير، نستنتج ما يلي:

-أنّ فعل الهجرة حقّ مكفول لكلّ البشر دون استثناء، ولا نستطيع بأيّ شكل من الأشكال إقصاءه سواءً كسلوك فردي أو اجتماعي على أرض الواقع أو حتّى كتيمةٍ تفرض نفسها في البحث العلمي.

-أنّ الهجرة ظاهرة اجتماعية كلية عند علماء الاجتماع، حيث يسعى عادة إلى عزل الدوافع غير الاقتصادية للهجرة ويعمل على موضعتها في سياق الكل الاجتماعي الذي تندرج فيه.

-أنّ لمدرسة شيكاغو الأثر الكبير في الوصول إلى تنظير ومقاربة سوسيولوجية لظاهرة الهجرة، من خلال التركيز على عديد المفاهيم كاندماجية المهاجرين، الوضعية الاجتماعية، الاختلالات الاجتماعية .. الخ.

-أنّ هناك العديد من الأسباب المختلفة التي قد تدعو للهجرة، لعلّ أهمّها اضطرار الأفراد إلى مغادرة أوطانهم بسبب الحروب أو بسبب البحث عن فرص عمل أفضل أو تحسين ظروف معيشتهم بشكل عام.

-أنّ نسق الهيمنة الغربية يلعب دوراً هاماً في بلورة آليات الهجرة وإدارتها، فغالباُ ما تشكّل النظرة المتعالية وأسلوب الاحتقار هاجساً للمهاجرين الوافدين من دول العالم الثالث.

-أنّ التعليم والتفاعل اليومي في مجالات الحياة اليومية والتي تقتضي التداخل والتبادل الثقافي المتباين يؤدّي إلى الاندماج الثقافي والاجتماعي.

-أنّ دول الإرسال ودول الاستقبال مطالبة بتبني سياسات رشيدة وفعالة مشتركة لتحقيق الفوائد المتزايدة من تنقلات المهاجرين بينها في ظلّ تنامي الهجرة غير الشرعية.

-أنّه لا توجد نظرية متكاملة في تفسير أسباب الهجرة، فهناك نظريّات ترجع أسباب الهجرة إلى تطوّر المجتمعات، وهناك نظريّات ترجعها إلى التفاوت الحاصل بين الدول، في حين أنّ هنالك نظريات تربط ظاهرة الهجرة بعوامل الطرد في بلدان الأصل وعوامل الاستقطاب والجذب في دول الاستقبال.

- أنّ المهاجرين وبالرغم من العراقيل التي تواجههم سواءً أثناء عملية التنقّل، أو الصعوبات التي تعترضهم داخل الدّول المستقبلة، إلاّ أنّهم يفضّلون المكوث في تلك الدّول وعدم العودة إلى بلدانهم الأصلية .

الهوامش:

[1] – أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة كتاب البر والصلة 1984/4 رقم : 2562 .

[2] – انظر: تاج العروس مادة (هجر)، 606/7، والمغرب في ترتيب المعرب ص : 499 باب الهاء، الهاء مع الجيم.

[3] – انظر: المصباح المنير، ص 242. والمغرب في ترتيب المعرب، ص 499، باب الهاء، الهاء مع الجيم.

[4] – ابن منظور، لسان العرب، مادة (هجر)، 771/6.

[5] – انظر: التحرير والتنوير 176/5.

[6] – التحرير والتنوير 84/10.

[7] – سورة المزمّل، الآية 10.

[8] – سورة النساء، الآية 34.

[9] – ابن منظور: لسان العرب، 771/6.

[10] – النهاية في غريب الحديث والأثر، 244/5.

[11] – سورة الفرقان، الآية 30.

[12] – المعجم الوسيط، 973/2.

[13] – عبد الله عبد الغني غانم: المهاجرون دراسة سوسيو انثروبولوجية، ط2، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية – مصر، 2002م، ص 18.

[14] – هشام صاغور: السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي اتجاه دول جنوب المتوسط، مكتبة الوفاء، الإسكندرية، 2000م، ص 143.

[15] – عثمان الحسن محمد نور – ياسر عوض الكريم المبارك: الهجرة غير المشروعة والجريمة ، مركز الدراسات والبحوث بجامعة نافا للعلوم الأمنية ، الرياض ، ص 15-16.

[16] – رشيد زوزو: الهجرة الريفية في ظل التحولات الاجتماعية الجديدة في الجزائر (1988-2008) ،أطروحة لنيل دكتوراه دولة في علم الاجتماع، قسم علم الاجتماع، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008 ،2009 ،ص13 .

[17] – محمد رشيد الفيل: الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس التكنولوجيا ، ط 1 ، الأردن : دار مجدلاوي ، 2000 م ص 40-42.

[18] – عبد الرحمن المالكي: الثقافة والمجال (دراسة في سوسيولوجيا التحضّر والهجرة في المغرب)، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، فاس – المغرب، ص 183 – 184 .

[19] - Jean Jeacques RAGER، Le musulmans Algeriens en France et dans les pays islamiques، Paris، 1950، P 125.

[20] – أحمد الربايعة ، دراسات في نظرية الهجرة ومشكلاتها الاجتماعية والثقافية، عمان، دار الثقافة والفنون ، 1987 م، ص 12-13 .

[21] – محمد رشيد الفيل: مرجع سبق ذكره ، ص 40- 42.

[22] – هشام البدوي محمّد فضل المولى: دور الهجرة في التغير الثقافي والاجتماعي، بحث تكميلي لنيل درجة البكالوريوس، إشراف: الطيب سعيد قناوة، جامعة الخرطوم – قسم الجغرافيا، جوان 2011م، ص 8.

[23] – هشام البدوي محمّد فضل المولى: مرجع سابق، ص 18 .

[24] – ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 2013م، ص 17.

[25] – محمّد بوعزة: سرديات ثقافية (من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف)، منشورات الاختلاف، ط 01، 2014م، الجزائر، ص 111.

[26] – بول كوليير: الهجرة كيف تؤثر في عالمنا ؟، تر: مصطفى ناصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2016م، ص102 .

[27] – ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية)، ص 13.

[28] – رضا عامر: المناهج النقدية المعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، عمان – الأردن، 2020م، ص 119.

[29] – محمد غزالي: الهجرة السرية في الجزائر من خلال الصحافة المكتوبة "صحيفة الشروق، نموذج"، مذكرة لنيل رسالة ماجستير، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2010 ،2011 ،ص.12

[30] - International organization for migration. Glossary on migration. Geneva 2004. P 41.

[31] - Ibrahim Awed. Concept and practice of labour immigration policies in European Mediterranean countries. Paper presented to fifth Mediterranean social and politcal research meeting. Organized by European university institute and Robert Schuman centre for advanced studies. Florence، march 2004،P 24-28.

[32] – .العطري عبد الرحيم: تحولات المغرب القروي: أسئلة التنمية المؤجلة، طوب بريس، الرباط، ط 1 ، 2006م، ص115.